مادّة: الأدب الصوفي الجزائري السنة الثالثة ليسانس/ أدب جزائري

الدرس رقم06 أستاذ المادّة: بن زياني

الرمز الصوفي

1) مفهوم الرمز:

أ – لغة:

ترى بعض المعاجم" أنّ الرمز يعني الإشارة أو الإيماء، بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليد " ، فالإشارة والإيماء، عبارة عن لغة تواصل، لكنّها لغة مبهمة مستترةٌ لا يفهمها إلاّ الجماعة المتفقة على ذلك المعنى المغيب.

جاء عند ابن منظور من مادة رمز يرمز رمزا،"الرمز تصويت خوفي باللسان كالهمس،و يكون بتحرك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة صوت، وإنّما هو إشارة بالشفتين وقيل الرمز في اللغة هو كل ما أشرت إليه،مما يبان بلفظ أي شيء...".

إن المعاجم السابقة الذكر، تتفق في أنّ معنى الرمز لغةً يعني: إخفاء و حجب الكلام وجعله صعب المنال.

ب–اصطلاحا: من بين التعريفات الاصطلاحية للرمز نجد:

–" التعبير الغير المباشر عن النواحي النفسية المستتر ة التي لا تقوى على أدائها اللغة دلالاتها الوضعية "،وهي الصلة بين الذات والأشياء بحيث تتولد عن طريق التسميّة والتصريح.

–" هو الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم ،بمعنى كلام داخل النفس وما يجول بها من تصورات وأخيلة ومعانٍ .

فالرمز واسع وشامل، يستوعب كلّ المعاني والأفكار،التي يصعب أو يستحيل أن تستوعبها الألفاظ، لأنّ الرموز الأدبيةّ تحمل في ذاتها عديدا من التأويلات والاحتمالات.

2) مفهوم الرمز الصوفي:

التجربة الصوفية" تجربة حياة عالم نفسي وروحي،هائل التفرد و الاختلاف، فهي تجربة غير حسية، و في الوقت ذاته ليس أمامها سوى الأشياء المحسوسة للتعبير عن نفسها ،مما أفسح مجالا للتأويل، و تعدد معنى الرمز الواحد، ليكون رمزا مفتوحا على معانٍ احتمالية لا نهاية لها" ،فالصوفي في تجربته،يعبر بالمحسوس عن اللامحسوس، فهو يخوض عالم يصعب وصفه، والتعبير عنه بلغة عادية،بل يستوجب لغة تتماشى مع هذا العالم الذي (يشاهده)، وحال النشوة التي يعيشها، فوظّف الشاعر الصوفي"الرمز" كمعادل موضوعي لتلك الحال، وقد كان الشعر الحالي المجال الذي عبر من خلاله الصوفي عن حال الوجد والحزن والقبض والبسط إلى أن يصل إلى مراده،" والشعر الحالي هو الشعر الصوفي الحقيقي، الذي عكس حقيقة التجربة الصوفية، في سمّوها وحرارتها وتفردها، وهو من ثمّ كان حاجة إلى لغة خاصة، في مستوى خصوصية هذه التجربة، مما جعل الصوفي يجأ إلى الرمز بعدما تعذّر عليه إيجاد هذه اللّغة الخاصة على مرِّ السنين".

ويعد الرمز"طريقة من طرائق التعبير، يحاول بواسطتها الصوفيون، محاكاة رؤاهم ونقل تصوراتهم، عن المجهول والكون والإنسان، ووصف العلاقة بين الإنسان والله، والعلاقة بين الإنسان والكون"، فمثل هذه القضايا الغامضة، يعبر بها الصوفي عن طريق الرمز.

3) أشكال الرمز الصوفي الجزائري:

تعدّدت أشكال الرمز الصوفي وألوانه،بتعدّد مصادره، ومواضيعه،و بواعثه،فصار يزدهي بألوانه الأدب الصوفي عامة، والقصيدة الصوفية بشكل خاص، ومن أشهر تلك الرموز التي ازدحمت بها القصيدة الصوفية،والتي أُفردت لها أحيانا قصائد كاملة،نجد رمز الخمرة، ورمز المرأة،عند الحديث عن الحبّ الإلهي، ومنها رموز مستمدة من الطّبيعة، كرمز الماء، النور، الطير،الفراش، الأعداد والحروف، الطّلل والرحلة،...إلخ ، وسنحاول في هذا الدرس أن نتطرق لأهمّ تلك الرموز مع بعض النماذج الشعرية والنثرية التي تجلت

في تجاربهم الصوفية والإبداعية.

أ- **رمز المرأة:**

جعل الصوفية من المرأة رمزا للجمال الأرضي المطلق، معبرين من خلال هذا الرمز عن حبّهم وتعلّقهم بالذّات الإلهية، وقد اتّسمت المرأة في أشعارهم بمسميات عديدة، مثل:(ريا، نِعْمَ، ليلى، سلمى،...) وقد اتخذ الصوفية من رمز المرأة، رمزا لوصف شوقهم ووجدهم وهيامهم ،لا بالمرأة هذا الكائن الجميل لذاتها، وإنّما شوقهم وحبّهم للّه عز وجلّ.

إنّ التعبير عن هذا الحب باستخدام ألفاظ مستعارة من المعجم الغزلي المتعارف عليه هو أساس الشعر الصوفي، وهذا رمزا لا تصريحا، وفي هذا يقول **أبو مدين شعيب:**

فَاحَ النَّدى بِمَنْطِقِي فَتنَازَعوا لأبِإِسْحَلٍ أَسْتَاكَ أمْ بآراكِ

هَيْهَاتَ عَهْدِي بِالسِوَاكِ وإنّما شَفَةُ الحَبِيبِ جَعَلْتُهَا سِوَاكِي

ويَظُنُ مَنْ سَمِعَ الحَديثَ بأنَّهُ حقٌّ حَلاَ ومُدَبَرُ الأَفْلاَكِ

رُؤْيَا رَأَيْتُ وإنْ مَنْ أَحْبَبْتُهُ لَمُنَزَهُ عَنْ مِهْنَةِ الإدْرأكِ

يقدم الشاعر في هذه الأبيات صورة من الغزل الذي يبدو صريحا للوهلة الأولى، لكن سرعان ما يربط هذه الصورة بالخالق المنزه عن الإدراك، فهي صورة للعشق الإلهي الذي يعبر عنه الشاعر بالرمز.

ومن الشعراء الصوفيين الجزائريين الذين عبروا بعمق عن الحب الإلهي، الصوفي "**عفيف الدين التلمساني أبي ربيع**"، وممّا قال في هذا الغرض:

لاَ تَلُم صبوتي فمن حب يصْبُو إنّما يرحم المحب المحبَ

كيف لا يوقد النّسيم غرامي، ولـه في خيام ليلى مهب ؟

مَا اعْتِذَاري إذا خَبَتْ لِي نارُ وَحَبِيبي أَنْوارُهُ لَيس تَخْبُوا؟

فالمرأة هي أبهى وأجمل تجلٍّ للكمال الإلهي في الكون، وكأنّي بهم أرادوا إنصاف المرأة، التي ظلّت مهانة في الجاهلية، ومغيبة طوال العصور الإسلامية المتأخرة، فَبَجلُّوها

بجعلها أجمل تجلّيات الوجود، حتّى وإن لم تكن مقصودة لذاتها. وقد نجد كما سبق ذكره تعدّد أسماء محبوبات الشاعر في القصيدة واحدة.

فالمتأمل فيما جاء في هذه الأبيات يلاحظ الرمز الأنثوي (ليلى) مع جملة من مصطلحات الصوفية المتعلقة بالغزل الصوفي(من تجلي الأنوار الإلهية، الحب، إلى الحلول، ثم الكون، فالحسن... الخ)، وهي تبرز صورة من صور التغزل بالذات الإلهية .

ب- رمز الخمرة:

كما كانت المرأة هي محور القصيدة شعر الغزل،قديمه وحديثه، ومنبع إلهام للشاعر في حلّه وترحاله، وكان للخمرة الوقع نفسه في نفس العربي الجاهلي خاصة.

ومن المتفق عليه" أن الخمرة عند العربي، تعد من أنفس ما يجب أن يحصل عليه، لذلك لم يخلُ بيت في شبه الجزيرة العربية منها، كما كان لها في القصيدة الجاهلية، وغير الجاهلية ذكر كثير حتّى سميت قصائد كاملة الخمريات، فراح الشعراء يتغنون بها، يصفونها ويعدّدون أنواعها، وألوانها، وأذواقها... ولمّا جاء الإسلام حرّم من جملة ما حرّم الخمر، لما تفعله بصاحبها من تغييب للوعي .

أمّا الخمرة الصوفية فهي طبعا ليست الخمرة الحسية،" لأن الصوفي كما أشرنا يستعين في تعبيره عن عالمه الروحي بأدوات من عالم المادة الحسي، فاستعاروا من الخمر صفتها".

إنّ الخمرة لدى الصوفية ليس سوى ذلك التجلي للحبّ الإلهي الذي يعيشه الصوفي، ويكتسي بعدًا رمزيًا، فالسكر" لا يكون إلاّ لأصحاب المواجيد، فإذا كُشِفَ العبدُ بنعت الجمال حصل السكر وهام القلب" وفي هذا المعنى نقتطف من خمرية أبي مدين شعيب:

أَدِرْهَا لنا صرفًا ودع مزجها عنَّا فنَحْنُ أُناس لا نرى المزج مذْ كُنَّا
وَغَنَ لنا فالوقتُ قد طَابَ باسمها لأنَّا بِهَا قد رَحَلْنا بِها عنَّا
هي الخمرِ لمْ تُعْرَفْ بِكَرَمٍ يَخُصُّهَا وَلمْ يَجْعَلْهَا راح ولم تَعْرَفْ الدنَّا

يطالب هنا أبومدين بخمرة صافية وهي ترمز هنا للوصول ومشاهدة ذات الحضرة، وهي الحقيقة الوحيدة في الكون، ويشير هنا إلى (الدنا) وعاء الخمر، وهذه الخمرة هي التي تأخذ الصوفي إلى عالم سحري، حيث تتجلى الذات الإلهية .

وبشيء من التأمل نلمس تعانقا بين سكر الصوفي والأفكار الفلسفية، في تعبير شاعر الحقيقة المطلقة عفيف الدين التلمساني، يقول:

قُم يا نَديمي فالحميا تُدارِ أما ترى الليل بها قد أنار

كأس لها الحكم فمن أجلَ ذا تعزل ليلا، و تولى نهار

يَسْكُنُ من يشرب كاساتها في جنّة بها، وهي نارُ

إنّ ساقي الخمرة وشاربها عند عفيف الدين له شمائل فوق إدراك البشر إنه الحق تعالى، وللخمرة بعد عرفاني لا يصل إليه العقل،فالسكر الصوفي يجعل من المعرفة تدرك ذوقا لا عقلا،بل حتّى تدخل صاحبها جنة بلا نار.

أمّا الأمير عبد القادر، فنجد شعره الصوفي حيزا كبيرا للخمرة ولواحقها من سكر وصحو وتجلي، يقول في بعض الأبيات:

ويشرب كأسا صرفة من مدامة فيا حبذا كأس و يا حبذا خمر

فلا غول فيها ولا عنها نزفة وليس لها برد وليس لها حر

معتقةٌ من قبل كسرى مصونةٌ وما ضمها دَنَّ ولا نالها عصر

يصور الأمير تأثير هذه الخمر في شاربها من المتصوفة، فهي تسبب لهم الانشراح و الانبساط، فتراهم سكارى وما هم بسكارة بنشوة هذه الخمر.

شكَّل رمز الخمرة وما يحدثه من سكر بديلا " خمريا يسبب النشوة والفرح الروحيين، والصوفي في حالة وجده بالمحبة، أو في حالة التجلّي الحق عليه بالمحبة، فيض من اللّذة الروحية، تطغى على كلّ كيانه.

ج- رمز الطّبيعة :

تعدّ الطبيعة عند الصوفي جزءا مهما في تجربته الصوفية،" فهو في سفره يبحث عن

سرّ هذا الكون، عن معرفة الخالق تعالى، والوصول إلى الحب الإلهي، الذي جعل الصوفي يرى كلّ شيء في الطّبيعة، بل في هذا الكون، رمزا للذات الإلهية" وعلى ذلك فإنّ الصوفية،" كانوا يعشقون بالعين الكون، إن صح التعبير، لذلك شمل حبهم كلّ مظهر من مظاهر الوجود، وعم الطّبيعة الساكنة منها والمتحركة، ولا نقول الصامتة والناطقة، لأنّ الطّبيعة بالنسبة للصوفي ناطقة كلّها في سكونها وحركتها ". لذلك أحبّها، لأنّه كان يرى من خلالها التجّلّي الإلهي.

فقد كان **عفيف الدين التلمسانى** مغرما بذكر مظاهر الطبيعة الغناء ومنها الطير والحمام على وجه الخصوص، يقول:

ووَرَقَ حمائم في كلّ فن إذا نطقت لها لحن صواب
لها بالظل أزرار حسان وأطواق ومن ورق ثياب

ويقول:

على عطفة حتّى من الورق غيرتي ألم ترها هاجمت على الغصن الرطب
دعاني انكسار الجفن منه لضمة فجاوبني: ما للغصون سوى الهضب
وغردت تغريد الحمام توصلا إليه لما بين الحمائم والقضب

ومن خلال هذه الأمثلة وغيرها في شعر عفيف الدين التلمساني، نلاحظ تخطى الشاعر لرمز الحمام ككون محسوس،و ينعطف منه اتجاه الحياة الباطنية وما تحمله النفس والروح من مجاهل وأعماق، فمثلما تحلق الطيور فرحا ومرحا وغناء، كذلك تحلق الروح فرحا وغناء حالة الاتحاد والفناء الذي يحقق لها القرب من المصدر النقي الذي يمثل الوطن الأصلي لها، وتبكي إذا نأت عنه، وتتطلع للعودة إليه مرة أخرى.

خلاصة: إنّ الرمز الصوفي يؤدي دورا جماليا فنيا في النص الصوفي، فالرمز مجال وتعبير واسع ومتعدّد، يقوم بوظائف عدّة، يجد فيه الصوفي والمتذوق لأدب الصوفية ضالته.